

بيان نويهض الحوت*

قلم التحرير ودراسة "المؤرخون

الفلسطينيون والنكبة**

المجلات العربية المماثلة، ارتأيت أن أوضّح النقاط التي سيؤدي تركها على حالها إلى إشكالات في فهم المقصود منها. تنقسم الملاحظات أدناه إلى قسمين: القسم الأول: يتناول ما وقع التحرير فيه من أخطاء تتعلق بفهم التاريخ أو المعنى المقصود.

القسم الثاني: يتناول ما يسمّى التعديلات اللغوية التي تجاوزت حدود تصحيح الخطأ في حال وجوده، إلى إجراء تغيير في الأسلوب، بحيث فقدت الدراسة كثيراً من طبيعتها. بداية، أرجو إيضاح ما يلي بالنسبة إلى القسم الأول:

المقتبسات بالخط المائل هي للأصل، أي للمخطوطة، والكلمات باللون الأسود هي الكلمات التي تعرّضت للتغيير غير المبرر. المقتبسات بعد التحرير بخط عادي وبين أقواس، والأهمية لما تعرّضت له من تغيير مرفوض في المعنى، لذلك لم أعرّض للتغييرات في الأسلوب في هذا القسم الأول.

مطالعتي ملف العدد الماضي من **بعد** "مجلة الدراسات الفلسطينية"، وهو بعنوان: "النكبة مجدداً"، شعرت بأعماق النكبة وتواصلها أكثر من أي وقت مضى، وذلك لأهمية المواضيع التي احتواها في هذا الزمن الذي نعيشه، وكأننا ما عدنا ننتمي إلى جيل النكبة فقط، بل إلى عصر النكبة!!

كان موضوع "المؤرخون الفلسطينيون والنكبة" آخر ما قرأت في الملف لكوني صاحبة الدراسة. ولا أنسى سعادتي حين طلب مني رئيس التحرير، الأستاذ إلياس خوري، هذا الموضوع بالذات، فهو أحد المواضيع التي أرقّنتني منذ ابتدأت بمطالعة "القضية الفلسطينية" بتواصل، أي منذ أكثر من خمسين عاماً. واعتبرته تكريماً لي حين طلب مني أن أكتب عن هؤلاء المؤرخين الكبار الذين نشأت على مؤلفاتهم.

غير أنني فوجئت في أكثر من موضع بتغيير في النص من قبل قلم التحرير، بحيث أدى ذلك إلى تغيير في المعنى، وإلى التعرض - غير المقصود حتماً - لمؤرخين كبار كان لهم الفضل الأول في كتابة تاريخ فلسطين المعاصر. ولما كانت "مجلة الدراسات الفلسطينية" هي المجلة الفصلية الرائدة بين

* مؤرخة فلسطينية.

* انظر: بيان نويهض الحوت، "المؤرخون الفلسطينيون والنكبة"، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد ٨٩ (شتاء ٢٠١٢)، ص ٥١-٧١.

من أجل إنصاف المناضل والمؤرخ معاً، لا بد من التوقف إزاء طبيعة عصره والنتاج الفكري لرفاقه في الحركة العربية. وللمثال نذكر بعضاً من أصحاب المذكرات هؤلاء: تحسين العسكري، وفائز الغصين، وأحمد قدري، وأسعد داغر؛ ونذكر من المؤلفات الأولى: كتاب "القضية العربية..." من ستة أجزاء لأحمد عزت الأعظمي، وكتاب "الثورة العربية الكبرى" من ثلاثة مجلدات لأمين سعيد.

في (ص ٥٣، العمود ١، الفقرة ٢) تم حذف الأهم، أي ما يتعلق بكون رفاقه من "أصحاب المذكرات"، بينما أهمية المقارنة في كونهم لم يكتبوا إلا مذكرات، وهكذا وردت الفقرة كالتالي:

"... لا بد من التوقف إزاء طبيعة عصره والنتاج الفكري لرفاقه في الحركة العربية، مثلاً: تحسين العسكري؛ فائز الغصين؛ أحمد قدري؛ أسعد داغر؛..."

صحيح أن التحرير أبقى على المقارنة في النهاية كما هي (وشكراً)، لكن من حق القارئ أن يتساءل من هم أصحاب المذكرات هؤلاء؟ بعد أن تم حذف التوصيف بداية.

٤ - ورد في الأصل بشأن المكانة العالمية التي وصل إليها الخالدي:

غير أن المكانة العالمية التي وصل إليها كمفكر ومؤرخ لم تكن بسبب اللغة وحدها، بل بسبب نهجه الأكاديمي الذي لا يجد حتى الأعداء والخصوم ثغرة فيه، أولاً؛ وبسبب تحليله المنطقي المستند إلى ما لا يحصى من الحقائق والوثائق، ثانياً. فضلاً عن أنه من القلائل الذين يتمتعون بموهبة إيصال الرسالة إلى القراء بثتى الطرق، ودوماً، ضمن أكاديميته الصارمة، وبأسلوبه السهل الممتنع والآسر.

في (ص ٦٤، العمود ١، الفقرة ٣، السطر ٥) تم حذف "أولاً" المتعلقة بالنهج الأكاديمي،

القسم الأول: ما يتعلق بفهم التاريخ أو المعنى المقصود

١ - الفقرة الأولى من المقال كانت في الأصل:

حرب النكبة التي انتهت باحتلال إسرائيل لثلاثة أرباع فلسطين، وتشريد شعبها، وإلحاق ما تبقى من أرضها بالأردن ومصر وسورية، هي الحدث الاستراتيجي الذي هز الأمة العربية وضميرها ووجدانها.

في (ص ٥١، العمود ١، الفقرة ١) تم حذف كلمة "حرب" من دون مبرر، وبهذا لا يختلف المعنى فحسب، بل هناك خطأ، فالنكبة كانت نتائجهما أبعد من هذا كله بكثير، أما حرب النكبة فكانت هذه نتائجهما المباشرة.

٢ - ورد بشكل موجز بشأن أعمال دروزة في خلال حرب ١٩٤٨:

كما أنه كان خلال حرب ١٩٤٨ من أكثر المطلعين على مجريات الأمور في أروقة جامعة الدول العربية، إذ كان عضواً في الهيئة العربية العليا، وحتى بعد استقالته منها، فصداقاته استمرت مع كبار المسؤولين العرب في الجامعة العربية، مما كان له أثر واضح في كتابته عن النكبة.

في (ص ٥٣، العمود ١، الفقرة ١) كانت هناك "شكلبة" في النص بحيث ظهر دروزة وكأنه كان عضواً في جامعة الدول العربية واستقال منها، إذ جاء:

"... إذ كان عضواً في الهيئة العربية العليا، وقد استمرت صداقاته مع كبار المسؤولين العرب في الجامعة العربية حتى بعد استقالته منها..."

٣ - من أجل إنصاف دروزة جرت مقارنة بين مؤلفاته ومؤلفات أبناء جيله، فكان الأصل:

الأخير من حياة دير ياسين العربية، ...".

لماذا تم حذف كلمة "بين" وكأن الخالدي هو الذي قام فعلاً بجمع الشهادات من الناس، أي أنه هو الذي استجوبهم، وهو الذي قام بعملية التأريخ الشفهي. أهذا معقول؟ أنا أفهم أن مهمة قلم التحرير أن يصحح الأخطاء اللغوية إن وجدت، لا أن يغيّر أبسط الحقائق، حتى تنقلب إلى ضد المقصود منها.

وأود أن أضيف أنه يجدر ألا يغيب عن البال أن هذه الدراسة لمن يعرفون هؤلاء المؤرخين وكتاباتهم أصلاً، وهكذا فالقراء يعرفون ويتصورون أن الخالدي لم يزر الأهالي لجمع الشهادات، حتى يأتي قلم المحرر بخطأ كهذا، غير أن خطأ كهذا يرتد على الكاتب نفسه، وفي اعتقادي أن المقتطفات عن استشهاد حياة بلاسة كافية للإحاطة بأسلوب الخالدي الذي فعلاً جمع بين الشهادات، فاستند إلى ثلاث شهادات لرواية استشهاد حياة البلاسة في فقرة واحدة (راجع ص ٦٧، العمود ١، الفقرة ٢).

القسم الثاني: ما يتعلق بالتعديلات اللغوية

بالنسبة إلى التحرير اللغوي، من المقبول حتماً إجراء التعديلات حيث يجب، وهي محدودة جداً في حال الاقتصار عليها، لكنه من الواضح أن هناك عدواناً على أسلوب الكاتب، وهذا غير مقبول. وهذه أبرز الملاحظات - وبإيجاز - أدناه:

١- في اللغة العربية الواسعة الفضفاضة، هناك عدة مترادفات للكلمة الواحدة، لكن هل يعني هذا أن مهمة التحرير تغيير الكلمات وفقاً لهوى المحرر؟

٢- هل ندخل في نقاش الفوارق بين البدء

بجملة اسمية وجملة فعلية؟ ليس من المقبول أن يحول قلم التحرير بداية الفقرات كما يشاء - وبغض النظر عن محتواها - إلى جمل فعلية.

وكأنها تحصيل حاصل، واعتبار ثانياً المتعلقة بتحليل المنطقي هي أولاً، وأمّا الجملة الأخيرة بشأن موهبة المؤرخ ... التي لا أعتبرها من أسس دواعي المكانة العالمية، لكنها مكملة لها، فقد تم اعتبارها ثانياً. ولا أدري سبباً لذلك، فإذا جاز للتحرير ألا يستسيغ وضع كلمة أولاً في نهاية الجملة، أي أنه إذا شاء المحرر أن يضع الترقيم بداية، فعلى الأقل فليوضع فعلاً في بداية الجمل. ولا ننسى أن أرقام الآيات القرآنية أصلاً في نهاية الآيات. وهكذا، لم أعد أنا أفهم الفقرة تماماً، وأصبحت كما يلي:

("غير أن المكانة العالمية التي وصل إليها كمفكر ومؤرخ لم تكن بسبب اللغة وحدها، بل بسبب نهجه الأكاديمي الذي لا يجد حتى الأعداء والخصوم ثغرة فيه، أولاً، بسبب تحليله المنطقي المستند إلى ما لا يحصى من الحقائق والوثائق، وثانياً ... لأنه من القلائل الذين يتمتعون بموهبة إيصال الرسالة إلى القراء بشتى الطرق، ودوماً، ضمن أكاديميته الصارمة، وبأسلوبه السهل الممتنع والأسر").

٥ - ورد في الأصل في تحليل أهمية كتاب "دير ياسين..." للخالدي، أنه هو الذي قام بالجمع بين الشهادات ثم روايتها باقتطاف ما رآه مناسباً، وقد ورد أصلاً:

أمّا مجموع المصادر والخرائط والجداول ومواقع البيوت بيتاً بيتاً، فكان الخالدي هو المشرف عليها والموجه إلى جمعها، وهو المؤلف الذي جمع بين الشهادات ثم رواها حكاية موثقة متكاملة، ساعة بساعة، وكان القارئ يعيش لحظات اليوم الأخير من حياة دير ياسين العربية، ... إلخ.

في (ص ٦٦، العمود ٢، منتصف الفقرة ٢) ورد:

("... وهو المؤلف الذي جمع الشهادات ثم رواها حكاية موثقة متكاملة، ساعة بساعة، فجعل القارئ يحس كأنه يعيش لحظات اليوم

هو من صرف عمره في البحث والتنقيب والكتابة، وهو أيضاً أحد ضحايا النكبة بامتياز، إذ فرضت عليه الأقدار أن يكتب التاريخ مرتين لا مرة واحدة. وكان ذلك...

أما ما آلت إليه المقدمة عن الدباغ فيُقرأ في (ص ٥٩)، ويُقرأ كيف يغيّر وضع النقطة مكان الفاصلة من معنى.. وكيف يقتل التحرير أهمية المقصود من الفقرة كلها، وهي أن تكون هذه المقدمة بالذات مختلفة عن غيرها، وأن يتذكر القارئ بعضاً من "من هو الدباغ"، فأضحت الفقرة كالتالي:

("إنه مؤرخ فلسطين. وعلى وجه الدقة والإنصاف، هو مؤرخ كل مدينة وقرية وعهد، ومؤرخ البشر والحجر والشجر. هو "منصف الموتى من الأحياء"، وهو من سجل أسماء الأبطال الذين لم تُعرف أسماؤهم في حرب النكبة، وسطر أعمالهم البطولية المجهولة، من غير أن يدعي يوماً أنه المؤرخ الأوحد. هو من أرخ أعمال العظماء عبر مراحل التاريخ، ومن كان اهتمامه بالإحصاءات يأتي قبل أي شيء. هو من ألغى الحدود ما بين التاريخ والجغرافيا، ومن صرف عمره في البحث والتنقيب والكتابة. وهو أيضاً أحد ضحايا النكبة بامتياز، إذ فرضت عليه الأقدار أن يكتب التاريخ مرتين لا مرة واحدة، وذلك بعد...").

أخيراً، أرجو من الأخوات والإخوة في قسم التحرير أن يتقبلوا هذه الملاحظات بصدر رحب، وهم الذين يقضون الساعات في عملهم، والذين نقدر نحن جميعاً - كتاباً وقرّاءً - جهودهم. ومن منطلق التقدير هذا أود أن أختتم بأن أخطاء كهذه لا تحدث في حال سؤال المحرر للكاتب عن معنى بدا له مبهماً، أو فكرة بدت له ناقصة، ففي مثل هذه المراجعات إنصاف للنص من حيث المضمون واللغة معاً.

والنص هو السيد في حالات كهذه، وليس الكاتب أو المحرر. ■

٣. استناداً إلى المنطق العام تكون كل فقرة مستقلة بحد ذاتها، إلا حين يشاء المؤلف ربط فقرتين معاً لأمر ما، لكنه من غير المعقول إضافة حرف "الواو" أو أية كلمة أخرى في بداية كل فقرة لمجرد الربط، وكأن الفقرات كلها حبل من مسد. هذا الترابط يضعف النص ويعتدي على المعاني بين فقرتين غير مترابطتين. (هناك أكثر من ٢٥ "واو" أو أية كلمة من أجل الربط مثل "أما" أو "لقد" أو "إن".." إلخ. في هذه الدراسة بعد تحريرها).

٤. العدوان على الأسلوب آفة كل قلم تحرير. ولأوضح مقصدي بالنسبة إلى هذه الدراسة بالذات في مثل واحد لا أكثر. في مستهل الكتابة عن الدباغ، أردت إنصاف المؤرخ الكبير المظلوم الذي يقول كثير من المؤرخين المتفلسفين عنه "إنه ليس مرجعاً ولا يجوز الاقتباس من مؤلفاته"، وهذا بينما كانت مؤسسة الدراسات (قبل اجتياح ١٩٨٢) تسعى إلى إعادة طباعة مؤلفاته. هذا ما دعاني شعورياً ولا شعورياً إلى نعتي بما يستحق في مقدمة الجزء المتعلق به، مع تكرار هو... هو... بهدف أن تعلق بذاكرة القارئ. لكن كان لقلم التحرير رأي آخر، وهو شطب كلمة "هو" مرة من هنا، مع تبديلها من هناك، فما عادت للمقدمة أهميتها وفردتها التي سعى إليها الكاتب، وما عادت لتعلق بالذاكرة كما كان المقصود منها، وأما الأصل فهو:

هو مؤرخ فلسطين. وعلى وجه الدقة والإنصاف، هو مؤرخ كل مدينة وقرية وعهد. هو مؤرخ البشر والحجر والشجر. هو "منصف الموتى من الأحياء". هو من سجل أسماء أبطال لم تُعرف أسماؤهم في حرب النكبة، وسطر أعمالهم البطولية المجهولة، من غير أن يدعي يوماً أنه المؤرخ الأوحد. هو من أرخ أعمال العظماء عبر مراحل التاريخ. هو من كان اهتمامه بالإحصاءات قبل كل شيء. هو من ألغى الحدود بين التاريخ والجغرافيا.